الفقيه محمد بن الحسن الحجوي:
تجسيرية السرديات الثقافية لضفتي المتوسط

الدكتور محمد أكياس
مختبر الدراسات الإسلامية والتنمية المجتمعية، جامعة شعيب الدكالي
المغرب

الملخص:

عرف المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على غرار باقي بلدان المشرق العربي ظهور فكر إصلاحي نتيجة للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من جهة، ونتيجة للتدخل الأجنبي الذي ساهم بشكل كبير في إحداث تغييرات على جميع المستويات. وقد حدا هذا الوضع بالعديد من الباحثين إلى مقاربته من نواح مختلفة، وخاصة من الناحية التاريخية. ومن بين هؤلاء نجد المفكر الفقيه محمد بن الحسن الحجوي، الذي خصصنا له بحثنا هذا المعنون ب: " الفقيه محمد بن الحسن الحجوي: تجسيرية السرديات الثقافية لضفتي المتوسط"، وذلك باعتباره نموذجا بارزا للتيار السلفي العقلاني الداعي إلى تحديث المجتمع من خلال قراءة جديدة للتراث الفقهي الإسلامي، عبر تجسير الحوار مع الآخر.

ومن باب إعادة الاعتبار إلى فكر أصابه الإجحاف سنحاول نفض الغبار عن تجربة إصلاحية رائدة لمفكر متنور، من خلال الإجابة على الإشكالية التي بنينا عليها موضوع هذا البحث المتمثلة في طرح السؤال عن مدى تفاعل الحجوي مع السرديات الغربية ودوره في تحقيق التعابر والتقارب المنشود مع الغرب، حيث اعتمدنا على أهم مؤلفات الحجوي، ووقفنا عن كثب على جهوده الإصلاحية خاصة تلك التي أطرت توجهه الفكري، وتجسيريته مع الغرب، وأهمية التعابر الحضاري الإيجابي مع ثقافتي الضفتين، وأخذه منها بما يتوافق وتعاليم الدين الإسلامي والهوية الثقافية للمجتمع.

الكلمات المفتاحية: محمد الحجوي، الخطاب الإصلاحي، التجسير، التعابر الحضاري، السرديات الثقافية.

Abstract:

In the second half of the nineteenth century, Morocco, like the rest of the Arab Mashreq, witnessed the emergence of a reformist ideology as a result of economic, social and political conditions on the one hand, and as a result of foreign intervention, which contributed significantly to changes at all levels. This situation has led many researchers to approach it in different ways, especially historically. Among them we find the thinker jurist Muhammad ibn al-Hasan al-Hajjwi, to whom we have dedicated this research entitled: "The Faqih Muhammad ibn al-Hasan al-Hajwi: Bridging the Cultural Narratives of the Two Shores of the Mediterranean», as a prominent model of the rational Salafi current calling for the modernization of society through a new reading of the Islamic jurisprudential heritage, by bridging dialogue with the other.

In order to rehabilitate an unfairly damaged thought, we will try to dust off the pioneering reform experience of an enlightened thinker, by answering the problem on which we built the subject of this research, which is to ask the question of the extent of Al-Hajjwi's interaction with Western narratives and his role in achieving the desired crossness and rapprochement with the West, as we relied on We have closely examined his reform efforts, especially those that framed his intellectual orientation, his bridging with the West, and the importance of positive civilizational cross-culturalism with the cultures of the two banks, and taking it from them in accordance with the teachings of the Islamic religion and the cultural identity of society.

Keywords: Muhammad al-Hajjwi, reformist discourse, bridging, civilizational crossness, cultural narratives.

تقديم

شهد المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مثله مثل المشرق العربي ظهور فكر إصلاحي نتيجة للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من جهة، ونتيجة للتدخل الأجنبي الذي ساهم بشكل كبير في إحداث مجموعة من التغييرات على جميع المستويات. وهو وضع انبرى لدراسته عدد من الباحثين، وقاربوه من نواح مختلفة، وخاصة من الناحية التاريخية. لاسيما بعد معركة إيسلي التي كانت «مصيبة عظيمة وفجيعة كبيرة، لم تفجع الدولة الشريفة بمثلها»[1]، وكشفت بالملموس الفوارق بين أوروبا المتقدمة، والمغرب المتأخر، وأدت بالتالي إلى ظهور نخبة من المثقفين والمفكرين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الإصلاح عبر مختلف القنوات الممكنة والمتاحة كما أثارت انتباه المغاربة إلى أن إمكانياتهم الاقتصادية، وخاصة العسكرية، لم يعد بإمكانها مسايرة ومجابهة التقدم الأوروبي، مما ولد لديهم شعورا بالحاجة إلى التحديث والتغيير والإصلاح.

لقد بلورت هذه العوامل مجتمعة وعيا بضرورة الإصلاح في المغرب لدى مجموعة من المثقفين والمفكرين الذين اهتموا بالإصلاح، كلّ من زاوية معينة، لم يحظ فيها الإصلاح الفكري إلا باهتمام نخبة من العلماء والمثقفين، حيث خصصنا هذا المقام لواحد منهم وهو: محمد بن الحسن الحجوي، من خلال بحثنا الذي سميناه ب: " الفقيه محمد بن الحسن الحجوي: تجسيرية السرديات الثقافية لضفتي المتوسط"، باعتباره نموذجا بارزا للتيار السلفي العقلاني الداعي إلى تحديث المجتمع من خلال قراءة جديدة للتراث الفقهي الإسلامي، عبر تجسير الحوار مع الآخر، كما تشهد بذلك مواقفه وأفكاره لتي بثها في أعماله الفكرية التي لم تنل حظها من العناية والاهتمام، بل وتعرضت للطمس والقبر والتهميش والإقصاء، بسبب ما عاناه محمد بن الحسن الحجوي من أحكام متسرعة رسختها حسابات إيديولوجية، وظرفيات سياسية خاصة.

فإلى أي حد استطاع الحجوي أن يشخص الواقع المغربي وأوضاعه، خاصة وأنه جايل مرحلتين حاسمتين من تاريخ المغرب، مرحلة ما قبل الاحتلال من جهة، ومرحلة عهد الحماية من جهة ثانية؟ وإلى أي حد مكّنه هذا التشخيص من صياغة أفكاره الإصلاحية؟ وما الأسس التي أقام عليها هذا المشروع؟ وما مرجعياته الفكرية التي بنى عليها مواقفه وإصلاحه الفكري؟ خاصة وأن الفكر النهضوي لم يكن مقصورا على المشرق العربي فقط، بل كان مدار اهتمام كل البلدان العربية في الضفة المتوسطية.

في هذا السياق، ومن باب إعادة الاعتبار إلى فكر أصابه الإجحاف سنحاول نفض الغبار عن تجربة إصلاحية رائدة لمفكر متنور، قادتنا الأسئلة السابقة حولها إلى طرح الإشكالية التي بنينا عليها موضوع هذا البحث:

1. هل تفاعل الحجوي مع السرديات الغربية واختط لنفسه منهجا خاصا له منطلقاته وخصوصياته التي تميزه؟ أو أنه اكتفى بترديد ما طرح في الفكر الإصلاحي في المشرق، والسير على نفس المنهج الذي سار عليه المفكرون النهضويون المشارقة؟

2. هل كان لفكره الإصلاحي دور فعلي في تحقيق التقارب المنشود مع الغرب؟

أو أن الأمر ظل حبيس دعوة محتشمة إلى التعايش؟

وهدفنا من خلال هذه الدراسة، أن نبرز التفاعل الحضاري لمحمد بن الحسن الحجوي مع السرديات الغربية عبر تناولنا لعدة محاور رئيسة نجملها في مبحثين هما:

المبحث الأول: البواعث التاريخية للفكر الإصلاحي عند محمد بن الحسن الحجوي.

المبحث الثاني: مظاهر الانفتاح على السرديات الغربية في فكر محمد بن الحسن الحجوي.

حيث اعتمدنا أهم مؤلفات الحجوي، ووقفنا عن كتب على جهوده الإصلاحية خاصة تلك التي أطرت توجهه الفكري، وتجسيريته مع الغرب، وأهمية التعابر الحضاري الإيجابي مع ثقافتي الضفتين، وأخذه منها بما يتوافق وتعاليم الدين الإسلامي والهوية الثقافية للمجتمع، وحسبي ما ورد في كتابه القيم "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي" الذي يعد أهم مؤلفاته، وعدد من محاضراته ورحلاته إلى أوربا.

المبحث الأول: البواعث التاريخية للفكر الإصلاحي عند محمد بن الحسن الحجوي:

محمد بن الحسن الحجوي: الفقيه المصلح

نشأ الحسن الحجوي في أسرة علمية، كان لها الفضل الكبير في رسم وتوجيه مساره الفكري والعلمي، بحيث عكف وهو لم يتجاوز السابعة من عمره، على حفظ القرآن الكريم، ومبادئ الدين، وتعلُّم الكتابة والقراءة. ثم انتقل إلى جامع القرويين، حيث تتلمذ وتلقى مجموعة من العلوم النقلية والعقلية، على يد مجموعة من الأساتذة والعلماء، تخرج بعدها ليلتحق بهيئة التدريس، قبل أن يُعيّن نائبا في الصدارة العظمى للعلوم والمعارف، وبعدها في عدة وظائف إدارية مختلفة أبرزها، وظيفة سفير للمغرب بالجزائر، قبل أن يصبح رئيسا للمجلس الشرعي الاستئنافي الأعلى، فوزيرا للعدل، كما مارس التجارة لفترة طويلة من حياته، مما أهله علميا وإداريا لبلورة مشروعه الإصلاحي، سواء في جانبه المتعلق بالدين، أو الجانب الاجتماعي، أو السياسي من أجل مواجهة التحديات التي تهدد استقلال البلاد من جهة، ومن أجل المساهمة في إحداث التغييرات الضرورية واللازمة للنهوض والرقي بها إلى ما هو أحسن.

جسد الحجوي رؤيته الإصلاحية في كتاباته التي تقارب المائة، «جلها عبارة عن تقاييد ومذكرات ومحاضرات ألقاها الحجوي في عدة مناسبات داخل المغرب وخارجه، أو فتاوى لأسئلة فقهية كانت ترد عليه من مختلف بلدان العالم، في قضايا مختلفة تهم العبادات والمعاملات، وفي قضايا سياسية تهم التجديد والتحديث»، وتجمع بين ما هو فقهي، وما هو تاريخي، وما هو اقتصادي، وما هو اجتماعي، كما يتضح من خلال عناوين كتاباته التي ما زال أغلبها مخطوطا، ومحفوظا في الخزانة العامة.

انصبت اهتمامات الحجوي على مختلف المجالات المعرفية، مما جعله مثار اهتمام العلماء والمفكرين في المغرب، وخارجه، نذكر منهم قول الطاهر بن عاشور: «ومن أشهر الكواكب التي أسفر عنها أفقنا العربي في العصر الحاضر... الأستاذ الجليل، والعلامة النبيل، وصاحب الرأي الأصيل الشيخ محمد الحجوي المستشار الوزيري للعلوم الإسلامية بالدولة المغربية، فلقد مدّ للعلم بيض الأيادي، بتآليفه التي سار ذكرها في كل نادي»[2]. وقول الدكتور عباس الجراري الذي قال عنه: «..... يعد من علية علماء المغرب الذين تفتخر بهم معلمته الثرية والغنية بالعلوم والفنون»[3]. وقد كان لرحلاته الأثر الكبير في توجهه الفكري، وفي مشروعه الإصلاحي، إذ بفضلها تمكن من الانفتاح على المشرق العربي وعلمائه، وعلى أفكارهم الإصلاحية، ومن الاطلاع على الحضارة الأوروبية، وعلى مدى التقدم الذي عرفته على جميع المستويات، وذلك كما يقول بفضل: «اقتدار رجالهم العظماء وسعة معارفهم مع علو همتهم، وكمال النظام في الأعمال والأحكام، وما فطر عليه أهلها عموما من الشغف بالنظام في كل شيء»[4]، مما مكّنه من «أن يكتسب الرؤيا الواضحة، والنهج المبني على النقد والمقارنة. وسعى إلى استخدام العلم في العمل، وأراد الاحتكاك بالقوى الأوروبية بغية الاستفادة من مناهجها من أجل إخراج المغرب من سباته وتأخّره... وحاول التقرب من المحاولات الإصلاحية التي عرفتها بعض الأقطار الشرقية»[5].

يتبين من هذا الموجز لسيرته الذاتية، أنها ساهمت بشكل كبير في تحديد رؤية الحجوي الإصلاحية، والتي تتقاسمها مرجعيات ثلاث: تربيته التقليدية التي تعلم منها الشيء الكثير، وغرست في نفسه مجموعة من المبادئ والقيم الإسلامية والإنسانية، ودرايته واطلاعه على الحضارة الأوروبية وعوامل نهضتها، إضافة إلى تجربته في مجال التجارة، أو في مجال الإدارة.

وإذا كانت هذه العوامل قد وجهت الإصلاح بالدرجة الأولى إلى ما هو اقتصادي وسياسي، فإنها في نفس الآن شكلت مدخلا للإصلاح الفكري، ونقطة تحول في الخطاب والفكر الإصلاحيين لدى المفكرين المغاربة، والذي توزع كما هو الحال في المشرق، بين

فكر شخّص الأزمة التي يعيشها المجتمع من الداخل، أي من المشاكل والصراعات التي يتخبط فيها، وبين فكر يرجع ما آلت إليه البلاد إلى التدخل الأوروبي. وهو ما أفرز ازدواجية على مستوى الخطاب، تراوحت بين الطابع التقليدي الذي يؤكد على الرجوع إلى الماضي الإسلامي، وطابع تحديثي يدعو إلى الاقتباس من الآخر، والاستفادة من مقومات التقدم والحضارة لديه، تماما كما كان عليه الحال عند مفكري المشرق العربي، أمثال الأفغاني، ومحمد عبده، والكواكبي، والطهطاوي وغيرهم.

الملابسات التاريخية للإصلاح الفكري عند محمد بن الحسن الحجوي

تذهب جل الدراسات التاريخية للمغرب أن مشاريع الإصلاح لم تطرح إلا بعد الاصطدام بالآخر، والشعور بتفوقه عسكريا، وسياسيا، واقتصاديا، واجتماعيا، وفكريا، لاسيما بعد هزيمتي إيسلي وتطوان[6]، واللتان مهدتا لتوغل أوربا اقتصاديا، واستعماريا، وخاصة فرنسا وإسبانيا. وقد أكد هذا التفوق التدهور الشديد اقتصاديا واجتماعيا، وحالة الجمود الثقافي، وتفشي الأمية والتقاليد الفاسدة، وتردي الأوضاع الأمنية والاقتصادية لدى عموم الفئات الاجتماعية، وانقلاب الأحوال بالمغرب «الذي بدأ بثورة أبي حمارة التي سببت عجز مالية الدولة، واللجوء إلى السلف الأوروبي، ثم سقوط المالية بيد إدارة السلف، حيث اختل النظام، وضاع الأمن، وفسدت الأخلاق، وضاعت الفضيلة والأمانة، وتكالب الناس على الرئاسات الوهمية وجمع الحطام. وتسلط على مناصب الدولة كل دخيل جاهل، فجر ذلك إلى تلاشي الدولة العزيزية، وتتابعت المحن وأظلم جو المغرب. وفي أثناء ذلك وقعت معاهدة 8 أبريل سنة 1904 بين فرنسا والانكليز، ثم مؤتمر الجزيرة الخضراء، وبأثر المؤتمر بيسير سقطت الدولة العزيزية وقامت الدولة الحفيظية، ثم وقع إثر ذلك الاحتلال ثم إعلان الحماية سنة 1329 هـ، وما استقر الأمن إلا سنة 1331هـ فما بعدها شيئا فشيئا. هذه إحدى عشرة سنة رأى المغرب فيها من الأهوال والشدائد ما يشيب له الرضيع، وتندك له الجبال»[7]، سياسيا، واقتصاديا، واجتماعيا، حيث اتسم الوضع الاقتصادي بالضعف والتدهور، وقلة في الإنتاج، ونكوصا في تسويق السلع، وفتورا في الحرف والصناعات بسبب الظروف السياسية والأمنية القاسية التي كانت تعيشها البلاد. ناهيك عن الأوضاع الاجتماعية المزرية، وخاصة الجانب الصحي بسبب انتشار الأمراض والأوبئة والتي تسببت في خلخلة الاقتصاد، وكذا الجانب التربوي التعليمي الذي ظل قائما على حفظ المختصرات أكثر من اعتماده على الفهم والعقل، وعلى العلوم العقلية والدقيقة..

ورغم أن هذه الأوضاع كانت في منأى عن التحولات والتطورات التي شهدتها الضفة الشمالية من حوض البحر الأبيض المتوسط اقتصاديا واجتماعيا، فإنها كانت حافزا للمغرب بتبني مجموعة من الإصلاحات، سواء على المستوى العسكري، بتكوين جيش نظامي، أو على المستوى الاقتصادي، بفرض ضرائب جديدة، وإصلاح الإدارة، أو على المستوى التعليمي بإرسال البعثات إلى أوروبا. ولكنها آلت كلها إلى الفشل لأسباب مختلفة، أهمها المعارضة القوية من لدن العلماء الذين رأوا في هذه الإصلاحات مخالفة للشريعة ولمبادئها.

المبحث الثاني: مظاهر الانفتاح على السرديات الغربية في فكر محمد بن الحسن الحجوي

يعتبر محمد الحجوي أحد أكثر المفكرين الإصلاحيين اهتماما بالجانب المعرفي وتطلعا إلى فهم منجز الغير الناتج من التقدم العلمي، وأكثرهم تأكيدا على أهمية العلم ودوره في التقدم الحضاري، والسعي إلى النهل منه، حيث هيمنت على إدراكات الحجوي وعلى مشاهداته وما التقطه وما ركز عليه تيمتا العلم والأخلاق اللتين يعتبرهما قوة ضاربة وأساسا لكل تقدم، معتبرا الانفتاح على الغير ضرورة تاريخية صارت ملحة اقتضتها المرحلة.

وقادت إرادة المعرفة المفكر الإصلاحي محمد الحجوي إلى التوقف عند أسباب تقدم الغير وتفوقه، والمتمثلة في خصلتين أساسيتين هما النظام والأخلاق، يقول:" ولولا هذا النظام وذلك الأدب لهلكوا"[8]. حيث حرص الحجوي عن قصد ووعي أن ينقل إلى قارئه ومتلقيه ما يعرفه عن الآخر، معتمدا على ما رآه وما سمعه عيانا كاستراتيجية لكتابة رحلاته. يقول: "ورأيت أن أقيد ما شاهدت في رحلتي هذه لإفادة أهل المغرب الذين لم يرحلوا ولم يعرفوا شيئا من أحوال أوربا، ولم أرد أن أضخم رحلتي هذه بالتكلم على جغرافيات لبلاد وتاريخها القديم والحديث". وما يلاحظ على صورة الغير في فكر الحجوي أنها ليست قبلية وجاهزة، وإنما تتأسس انطلاقا من التفاعل مع الغير والاحتكاك به، ومن طريقة التعامل المباشر معه، وهي صورة تؤكد لكل متلق أن الغير لا يمكن حصره في قالب واحد وحكم جاهز هو الكفر، مما يسجل التعميم والاختزال، فالإنسان الغربي ليس واحدا بل هو يختلف باختلاف آرائه وتوجهاته، كما نسجل عند الحجوي غياب الدعاء على الغير وغياب نعته بالكافر عكس ما لجأ إليه آخرون، وإشارته إلى تعصب الغير وتسامح المسلمين حين تضايقه نظرات الإنكليز إلى لباسه ولباس من كان معه، فيرد قائلا: "فما أشد تعصبهم، وما أحسن تسامح المسلمين الذين لا يعيبون على الغريب شيئا"[9].

يبرز الهدف الاستراتيجي غير المعلن للحجوي في كتاباته عن الغرب في ضرورة الاستفادة من تجاربهم، وذلك بالإقبال على العلم. ويتضح ذلك في تركيزه على أهمية العلم وحسن النظام لدى الغير حيث يقول: «ولقد أعانهم على هذا وذاك اقتدار رجالهم العظماء وسعة معارفهم مع علومهم وكمال النظام في الأعمال والأحكام، وما فطر عليه أهلها عموما من الشغف بالنظام في كل شيء، وإتقان كل عمل يأتونه، وعلو الهمة في الترفه وحب الجمال والتظاهر بالكمال، والهيام بالعلوم والمعارف. وأساس ذلك كله هو العلم، فالتعلم عندهم إجباري على الرجال والنساء»، ويقول عن أهمية العلم: «فعلمنا أن الرياسة ليست بكبر سن ولا بعظمة جثة، وإنما يستحقها من له مزيد من علم ومعرفة»، ويشيد بالأخلاق الحسنة للغير: «وقابلنا مقابلة لطف وأدب» مستحسنا قيم الغير الأخلاقية والعلمية، ومحاولا التماهي معها.

وتعتبر رحلة محمد الحجوي الثعالبي التي سماها بالرحلة الأوروبية شكلا من أشكال التقييم لواقع البلدان العربية بمعايير الآخر، وتشخيصا لبواعث انحطاطها وأسباب ضعفها وإفلاسها الحضاري، فهي نموذج للرحلة الداعية للانفتاح على الغير بنية إصلاح الأمة وبعثها من جديد، من خلال استلهام تجارب ومكتسبات الغرب الحضارية.

وقد انقسمت هذه الرحلة إلى قسمين: رحلة سفارية دبلوماسية إلى فرنسا، وأخرى إلى انجلترا كان هدفها السياحة ومعاينة الأحوال العامة لتلك البلاد، ولم تكن مخطوطة الرحلة الأوروبية الوحيدة لدى الفقيه الحجوي في أدب الرحلة، بل كانت له مخطوطات في وصف الأندلس والبلدان العربية المشرقية التي حج إليها وعاين أحوالها مثل الجزائر وتونس والأندلس والحجاز من قبيل: مسامرة الزائر برحلة الجزائر، وحديث الأنس عن تونس، والرحلة الأندلسية الفيشية، والرحلة الحجازية، والرحلة المصرية، وهي رحلات أسهمت في صياغة الوعي بالذات العربية.

لقد كان الحجوي شغوفا بمطالعة رحلات سفارية مغربية وعربية انفتحت على أوروبا، مثل رحلة ابن عثمان المكناسي إلى إسبانيا ونابولي ومالطة، أدرجها في مؤلف تحت عنوان: «أنس السائر في اختصار البدر السافر» ، واعتبر الحجوي في هذا المؤلف أن رحلة المكناسي كان بإمكانها أن تسهم في إحداث نهضة مغربية تخرجه من غياهب الظلمات إلى نور المدنية لو أنها كتبت بأدب يسهل فهمه واستيعابه من لدن السلاطين وأولياء الأمور، الأمر الذي يفسر كون الرحلة بالنسبة للحجوي ليست مجرد وسيلة للتسلية والترويح عن النفس، بل غاية للإصلاح والتنوير، مما جعله يجتهد في تبسيط أساليب الوصف والتعبير وتلافي اللغة العالمة و الفظاظة في توصيف ما بدا من السلوك الموصوم في ثقافته، وإثارة الانتباه إلى التباين الحضاري، وحث أهل الحل والعقد وتحريضهم على

تكثيف جهودهم باتجاه تشييد سبل النهضة ورسم مساراتها السديدة، حيث نجده غير راض عن حال المغرب الراكن إلى التخلف، داعيا بنبرة شديدة اللهجة إلى إعادة الاعتبار إلى سؤال الهوية من خلال التركيز على ثنائية التقدم والتخلف المتعددة مداخلها وتأويلاتها.

لقد كان لهذه الظروف والأحداث التي واكبها الحجوي، إضافة إلى تجربته الشخصية الأثر البالغ في صياغة فكره الإصلاحي، بحيث مكنته من جهة، من إدراك الفارق والتباين بين المجتمعات العربية بما فيها المغرب، وبين المجتمعات الأوروبية في الضفة الأخرى من حوض البحر الأبيض المتوسط، ومن جهة ثانية، من بلورة مشروعه الإصلاحي على أسس نظرية، واقتراحات عملية من أجل إصلاح الخلل والفساد الذي يعاني منه المجتمع المغربي، وذلك وفق منهج ونسق في التفكير يؤثث رؤيته الكلية للإصلاح. فإذا نظرنا إلى فكر الحجوي ألفيناه ينتظم بمجمله حول عوامل ثلاثة: الاجتهاد، والتشبث بالنظام، والاهتمام بالعلم والعمل على نشره.

1. اللاتكافؤ الحضاري بين الشرق والغرب من منظور محمد الحجوي:

- **النظام لبنة التقدم:**

تعتبر فكرة النظام من المقولات الرئيسية التي بنى عليها الحجوي فكره ومشروعه الإصلاحي، وخاصة فيما يتعلق بتفسير تأخر المجتمع الإسلامي عموما والمغربي على وجه الخصوص، في مقابل تقدم الغرب. وهي فكرة استمدها الحجوي من رحلته الأوروبية 1919، والتي أدرك فيها قيمة النظام وأهميته في نجاح وتقدم الآخر، يقول: «لقد أعانهم على هذا وذاك اقتدار رجالهم العظماء وسعة معارفهم مع علو همتهم، وكمال النظام في الأعمال والأحكام، وما فطر عليه أهلها عموما من الشغف بالنظام في كل شيء»[10]، في مقابل «غياب النظام وشيوع الفوضى وتنازع الأهواء وانتشار الجهل»[11]، والذي عزاه إلى كون النظام الذي تسير به الدول الإسلامية من أقدم أعصرها كان قد هرم، ونخرت عظامه، وتشوه وجهه بالأخلاق السافلة الفاشية. وأحد النتائج المباشرة لذلك في المغرب، أن السلطان – يقول الحجوي–يضطر لتولية الجاهلين، فلا يحسون، إذ لا علم ولا نظام يردعهم، ولا وازع من الأخلاق يعظهم، والنظام الذي أسسته الدول العصرية، وسرى مفعوله في العالم...لا وجود له، ولم تتوفر في المغرب أسبابه ومعداته»[12]. فرقيّ الأمة لا يكون إلا بالنظام في جميع المجالات، في التعليم والاقتصاد، والتجارة، والإدارة، وفي كل الأمور المتعلقة بشؤون المجتمع، باعتباره طريقة أو منهجا للسلوك الاجتماعي وفق قواعد تحكمه يدخل بمقتضاها أفراد المجتمع في علاقات اجتماعية منظمة، وذلك وفقا للفقه الإسلامي الذي يعتبر –كما قال الحجوي–نظاما عاما للمجتمع البشري لا الإسلامي فقط، تام الأحكام لم يترك شاذة ولا فاذة. وهو القانون الأساسي لدول الإسلام والأمة الإسلامية جمعاء. وإن أمر انتظام دول الإسلام في الصدر الأول وبلوغها غاية لم تدرك بعدها في العدل والنظام، لدليل واضح على ما كان عليه الفقه من الانتظام وصراحة النصوص وصيانة الحقوق، ونزاهة القائمين بتنفيذ أوامره مما لا يوجد الآن»[13]. ولذلك دافع عنه وألح على تطبيقه والالتزام به منذ توليه المسؤولية نائبا للصدارة العظمى في المعارف والتعليم، وأسندت له مهمة إصلاح القرويين «الذي لم يزل على حاله القديم...من غير أن يكون به نظام ولا ترتيب لسير دروسه، ولا للموظفين الدينيين المتخرجين منه»[14].

إن هذا الوعي بأهمية فكرة النظام في مشروعه الفكري، هو الذي قاده إلى إلقاء محاضرة خاصة بالموضوع بعنوان « النظام في الإسلام»[15]، والتي وظف فيها كل الحجج والبراهين الإقناعية، منطلقا من التعريف اللغوي للكلمة[16]، ليبين أن الإسلام هو أولا وقبل كل شيء دين نظام، ويتوفر على منظومة من القوانين الضابطة لسلوك الأفراد، « وأن الحضارة الإسلامية، كانت حضارة راقية بفضل تشبثها بالنظام، لكن عندما ضعف النظام وعمت الفوضى والوهن بالعالم الإسلامي أصبح عرضة للغزو الاستعماري، وأن

المغرب حل ما حل به بسبب شيء واحد هو الفوضى، فأصبح عرضة للفساد الإداري وانتشار الأمية وانهيار دولة المخزن»[17]. ولذلك ما فتئ الحجوي ينتقد الأنظمة الإدارية والقانونية للمؤسسات التي فرطت في النظام، متسببة بذلك في تأخر المجتمع وانحطاطه، وفي انهيار الدولة، بخلاف دول الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، والتي لم تبلغ ما بلغت إليه إلا «باقتدار رجالهم العظماء، وسعة معارفهم مع علومهم، وكمال النظام في الأعمال والأحكام، وما فطر عليه أهلها عموما من الشغف بالنظام في كل شيء»[18]. لذلك طالب الحجوي بضرورة تبني هذا المبدأ، مع العمل على تجديده بحسب الأحوال والتغيرات الظرفية، «فكل نظام قابل للتغيير بحسب تطور الأزمان والعوائد والمألوفات وبحسب تغيير الأحوال، شرطه الوحيد عدم المس بالثوابت»[19].

ونظرا لأهمية هذه الفكرة، –والتي خصص لها كما قال: «تأليفا خاصا، فلينظره من شاء التوسع في الموضوع» [20]– لا يخل مؤلف من مؤلفات الحجوي من الإشارة إليها ودورها في تحقيق التقدم، وفي القضاء على كل أشكال الفساد التي يعاني منها المجتمع على كافة المستويات. «فعلى الكل أن يدخل النظام في كل شيء، ليحفظ وقته الذي هو أنفس ما يحفظ»[21]. فالنظام يجب أن يشمل كل شيء، وهو قابل للتغيير بحسب تطور الأزمان والأحوال، فهو سلوك وأسلوب حياة، فمتى استتب في المجتمع، تبدّل حاله، وحال المجتمع لن يتبدل إلا بالعلم والعقل والدين.

يعبر الحجوي عن اندهاشه الشديد من نمط النظام المعتمد في أوروبا، معتبرا انسيابه في كل مناحي الحياة سببا رئيسا من أسباب تقدمها، وأساس وجوه المدنية ومعالمها بها. وهو ما يؤكد بالنسبة إليه كون النظام ركيزة أساسية في انعتاق الأمم من التخلف، وهو ما عبر عنه في مختلف كتاباته الرحلية إلى الغرب بقوله: «فباريز معدن المدنية العصرية والنظامات الأوروبية(...)»، «وأهل الذوق الرفيع وأهل الأناقة والكياسة (...)»، «أعانهم على هذا اقتدار رجالهم العظماء وسعة معارفهم مع علومهم، وكمال النظام في الإعمال والأحكام وما فطر عليه أهلها عموما من الشغف بالنظام في كل شيء...»، «شوارع باريز وطرقها غاية في النظافة والنظام[22] ولتمام نظام البوليس الشرطة وكمال طاعة الناس واحترامهم لأوامره فإنه يقف في ملتقى الطرق ولا يتكلم وإنما يرفع يده فيقف الصادر والوارد دفعة واحدة لا يتقدم أحد بقدم حتى كأن بيده كهرباء توقف الجميع وهذا في لندن أكثر منه في باريس».[23]

يرى الحجوي أن النظام في أوروبا أسلوب حياة اجتماعي يضبط كل مؤسسات الدولة، مما يترتب عنه حسن تدبير العلاقة بالمكان وفي ذلك يقول: «فتجد شيخ المدينة مثلاً أزيد أدباً ولطفاً ممن تحته في الرتبة إذ لا يرشح للمناصب الكبار عندهم إلا الكبار وليس المراد الكبار الجثة أو العمامة أو، أو، بل الكبار قلباً وعلماً وأخلاقاً(...) واجمع لك وصف هذا المجلس بان نقول إنه على قدر عظمة المدينة ورفاهيتها» وهو ما لا يمكن مقارنته مع بلديات الوطن «فلا تقسه ببلدية فاس مثلا، كما أنه انبهر بسلوك التواضع وحسن الضيافة وكرم الوفادة الذي حف به رئيس الجمهورية الفرنسي الوفد المغاربي، واصفا ذلك بالقول: «وسلمنا على الرئيس وهو قائم على قدميه واحدا بعد الآخر(...) باسما هاشا(...) ثم ودع الجميع والألسنة تثني عليه الثناء الجميل وعلى أخلاقه الجميلة وتواضعه الزائد حتى يظن الظان أنه ليس رئيس جمهور أمة تعدّ بأربعين مليونا ومستعمراتها بستين مليونا».[24]

امتزجت لدى الحجوي مشاعر الإعجاب بالغرب والحسرة على حال الوطن ويتضح ذلك من قوله :«وهنا لا مجال لقياس ذلك بما لدينا في المغرب» وهو ما يجعله يصر على جلد الذات لتخلفها عن إحراز قصب السبق الحضاري، وانسحابها من صراع التفوق.

ويرى الحجوي أن الخروج من حالة التخلف لا يتم إلا باتساع المشارب المعرفية وتكاملها في ظل سيادة القانون، الذي يرسخ مبدأ النظام المنسجم مع طبيعة العصر وتحدياته، مسايرا الاجتهاد الفقهي والمقصد الشرعي، بما يخدم أفق التمدّن والازدهار، وفي هذا الصدد يقول: «لقد غاب نجك الحق في سحاب التقليد والتعصب المذهبي ولاسيما في فروع المعاملات البينية على مصالح تليق

بزمن مضى ولا توافق الزمن الحاضر وتصلح أحكامها لأحوال دون أحوال وبيئة دون بيئة مع ما تجدد في عصرنا من مبتكرات ومخترعات ونشأت معاملات لم يكن لها نظير في الزمن الغابر» [25].فعامل النظام المستند على المعرفة أساس كل نهضة مبتغاة،[26] لذا نجده «يدعو الكل أن يدخل النظام في كل شيء ليحفظ وقته الذي هو أنفس ما يحفظ» [27]. فتخلف المسلمين في اعتقاده لا يرتبط فقط بالابتعاد عن الفهم الصحيح للدين الإسلامي، بل أيضا بتكلس بنية العبث والفوضى وغياب النظام، «فأقبح الخصال التي أوردت بالإسلام هو جمود متأخرهم عن كل قديم وتفريطهم في حفظ النظام وإهمالهم إصلاح الأنظمة التي لم تبق مناسبة للأحوال المتجددة وغلبة الوهم على أفكارهم حتى عدوا المحافظة على القديم من فروض الدين... فالدين يقدم فيه حفظ المصلحة العامة وصون البيضة وارتقاء الأمة»[28]وهذا ما جعله يعجب كثيرا بأسس النظام الأوروبي ومظهره الديمقراطي، ويدعو إلى تبني نظام يواكب العصر، متوافق مع خصوصيات المجتمع المغربي، وهو ما أشار إليه قائلا :«إن نظام المجالس الشورية الانتخابية الموجودة في أوروبا وإن لم يكن بعينه عند الإسلام، لكن كان لهم نظاما كافيا بحاجاتهم الوقتية مناسبا لأفكار أمم ذلك العصر، لكون هذا النظام العصري لم يتكون دفعيا، بل نتيجة قرائح أمم أوجدته تدريجيا في أجيال متطاولة » [29]، نعم كل نظام قابل للتغيير في حياة المجتمعات بمعنى أن أحوال الأمم لا تستقر على حال بل تكون مرغمة على التجديد حيث تتأثر بالتغيرات الظرفية المحيطة بها وتؤثر فيها (...) نعم كل نظام قابل للتطور بحسب تطور الأحوال والأزمان والعوائد والمألوفات وتغير الأفكار فكم من نظام يكون صالحا لأمة في وقت لا يكون صالحا لها وقت آخر».

- **الاجتهاد روح التغيير:**

يظهر من خلال الرجوع إلى مختلف كتابات الحجوي، وفي مقدمتها كتاب الفكر السامي، أن فكرة الاجتهاد تعد الخيط الناظم لكل أفكاره سواء في مجال العقيدة، أو في السياسة، أو الاقتصاد، أو في غيرها من الأفكار، فهو جوهر المعرفة، وأساس الحضارة في مجالات الفكر والحياة. ولهذا شكل الاجتهاد المنطلق الأساسي لمشروعه الإصلاحي، وخاصة في الفقه الإسلامي الذي يعتبر من أهم مرجعياته الفكرية، وذلك بتكييفه مع مستجدات العصر حتى يساير المتغيرات والتحولات الاجتماعية للبلاد، انطلاقا من النظر–كما يقول: «للحقائق الراهنة، واعتبار أحوال أهل زماننا الحاضرة، وأن نربي رجال الاجتهاد للمستقبل» [30]. وانطلاقا أيضا من قناعاته الشخصية التي أملتها عليه تجربته الحياتية، وممارساته الوظيفية سياسيا، واقتصاديا، وتجاريا، والتي جعلته من الذين يعتدلون في الأحكام، وفي الفلسفة الفقهية، ولا يغرقون فيها، ولا يرون الاسترسال في الأقيسة والتحمّل في استنباط الأحكام بمنع معاملات كثيرة لم يصرّح نص بمنعها، لفقرها واحتكار تلك المعاملات لغيرها، بل و مكنته من أن يصوغ لنفسه رأيا اجتهاديا مستقلا، يستمد أصوله من المرجعية الإسلامية، ولكن في إطار عقلاني متفتح لا يجافي الذات، بل ينحو إلى التوفيق والتقريب بينهما من خلال اجتهاداته الفقهية، إيمانا منه بأن إصلاح المجتمع لا يتحقق إلا بتجديد القوانين، وتطوير البنيات التحتية في مجالات الاقتصاد والتجارة والصناعة والفلاحة، خاصة وأن جانب المعاملات في أحكام الشريعة، فيها مرونة مناسبة لحال التطور، لاستنادها على تقاليد تتكيف وإياها، وتتغير بتغيرها من أجل حفظ المصالح العامة، وحفظ الدين، وارتقاء نظام المجتمع.» فبهذا يتسع صدر نصوص الفقه، وباتساعها تصير ذات مرونة صالحة لهذا العصر الذي تغيرت فيه قوانين العالم كله بما يلائم المخترعات والأحوال الوقتية التي لا سبيل لدفعها ولا مناهضتها، وكلما تجددت حال، أو ظهر اختراع، أو تغيرت سياسة إلا وتراهم يغيرون قوانينهم لئلا تمنعهم من التقدم، ولئلا تكون حجرة عثرة في طريق نهوضهم، فتوجب السقوط وضياع المجد والحياة والشرف» [31]. ولذلك «فلتطرح الأمة عنها التعصب، ولتكن مذهبا واحدا، وهو اعتبار جميع المذاهب والأخذ من كل مذهب بما يوافق الأدلة، ويناسب روح العصر والوقت والحال والمكان والضرورة» [32]. ولن يتأتى ذلك إلا بالاجتهاد، ليس في مجال الفقه الإسلامي وحسب، بل في مختلف العلوم، لأن «ندرة المجتهدين أو عدمهم هو من الفتور الذي أصاب عموم الأمة في العلوم وغيرها. فإذا استيقظت من سباتها وانجلى عنها كابوس الخمول، وتقدمت

في مظاهر حياتها التي أجلها العلوم، وظهر فيها فطاحل علماء الدنيا من طبيعيات ورياضيات وفلسفة، وظهر المخترعون والمكتشفون والمبتكرون كالأمم الأوروبية والأمريكية الحية، عند ذلك يتنافس علماء الدين مع علماء الدنيا، فيظهر المجتهدون... ولا شك أن الأمم الإسلامية لا تشغل مقاما ساميا بين الأمم ما دامت ناقصة في هذه الميادين، وهي محتاجة لمجتهدين بإطلاق، عارفين بعلوم الاجتماع والحقوق، يكون منهم أساطين لسن قوانين دنيوية طبق الشريعة المطهرة تناسب روح العصر، وتنطبق على الأحوال المتجددة والترقّي العصري»[33]. وهي قناعة ترسخت لديه بعدما تتبع مسار الحركة الاجتهادية في المغرب وعبر التاريخ، ملخصا إياها في قوله: «فانظر رحمك الله تأفف أهل القرن الرابع إلى الثامن من مآل الفقه، وترك السنة، والاجتهاد، والاشتغال بالفروع، وهكذا بقيت الحال في نقصان، واندحار إلى وقتنا هذا، وربما حصلت حركة في بعض الأعصر، ولكن يعقبها سكون وجمود»[34]. فانطلق بذلك من تشخيص الصورة التي كان عليها الفقه في زمانه، قبل تحديد المبادئ الاجتهادية التي أسس عليها مشروعه الفكري، والتي يمكن حصرها إجمالا في مبدأين:

- عدم إدماج العبادات في باب المعاملات «لأن النصوص الشرعية المانعة من أنواع المعاملات قليلة جدا بالنسبة لما فرعه الفقهاء بالاستنباط المبني على أصل دخول التعبد والتدين في باب المعاملات»[35].
- الاستفادة من جميع المذاهب، واقتباس منها ما يوافق الحال والعصر، فكل «مذهب فيه صواب وخطأ لم يتعمده قائله، ولكن أداه إليه اجتهاده. وإن المخطئ معذور بالاجتهاد، مأجور على ما بذله من الجهود في إصابة روح التشريع واعتقاده صواب رأيه»[36].

وحسب هذا الطرح، فالإصلاح لا يتم إلا بفتح باب الاجتهاد، واستثماره في تجديد القيم والأفكار والمعتقدات، وتكييف الشريعة الإسلامية مع متطلبات العصر ومستجداته، وإيجاد الحلول للمسائل الظرفية والطارئة، والتي قد تتعدد وتختلف بتعدد الظواهر واختلافها. «فإذا لم يجد (الفقيه) ما يقيس عليه.. وجب الاجتهاد وفق ما يتأقلم مع أحوال الزمن دون معارضة لهذه الأصول. وهذا هو الاجتهاد الحقيقي وعليه يبنى مجد الأمة»[37]. وهكذا يدعو الحجوي حسب هذا المبدأ إلى تجديد طريقة التفكير في الدرس الفقهي وربطه بمضامين الحياة الفردية والاجتماعية على حد سواء، وهو بصنيعه هذا يعبر عن نوع من التطور الفكري الذي يحتاجه العصر. تفكير يميل إلى الوسطية والاعتدال في كل شيء، «فلا ينبغي للفقهاء أن يقيّدوا الأمّة عما يزيد تقدمها، ولا يضيقوا عليها حتى تخلع الرسن، ولا أن يوسعوا حتى تنحل الشريعة، بل الاعتدال أساس من أسس الشريعة»[38].

«فالإسلام مهد الأرض وزرع، وغيره نمى الزرع وحصد، وكل ما زادته أوروبا أو غيرها يتعين علينا معرفته، وإلا كنا مخلين بواجب ديني»[39]. وهي دعوة لا تقصر الاجتهاد في باب الشريعة، بل هي دعوة إلى إعماله أيضا عند الانفتاح على الحضارة الغربية، وتكييف ما يؤخذ منها مع الخصوصيات المغربية. ولذلك ما فتئ الفقهاء، وخاصة المحافظين منهم يحثون على أهميته ودوره الأساسي في الرقي بالمجتمع في كافة المجالات. وعليه «فالاجتهاد عند الفقيه الحجوي السلفي الذي لا يبرح موقع الإسلام في النظر إلى نوازل الحياة المعاصرة، لا يعني العودة إلى الأصول فحسب، بل هو يتعدى ذلك إلى التشوف إلى المعاصرة، والتطلع إلى توظيف قيم العصر في نسيج الفكر والمجتمع»[40]. وهو تصور نابع من اقتناعه بدينامكية المجتمع وحركيته من خلال التحول في النظم الاجتماعية، وفي العلاقات بين الأفراد، «فإذا حدث تغيير إيديولوجي، فإنه يؤثر في النواحي الفكرية والمذهبية والنظم السياسية والاقتصادية والتربوية والفكرية وما إليها»[41]. فالتجديد أمر لابد منه، لأن لكل عصر قضاياه ومشكلاته وحوادثه الجديدة التي تتطلب فكرا جديدا يسايرها ويتماشى معها، فكرا منافيا للتقليد والتفكير الخرافي، وداعيا إلى الاجتهاد، ومتحكما إلى العقل والعصرنة من خلال التوفيق بين أحكام الشريعة ومتطلبات العصر. وبذلك «بلغ خطاب التجديد مدى بعيدا جدا في المغرب مع الفقيه الحجوي، وفي قراءة لما كتبه

مؤلف الفكر السامي، ما يغري بالقول بمد قنوات من الحوار مع الخطاب الليبرالي كما نجده في الفكر العربي المعاصر، بل وفي أكثر أشكال ذلك الخطاب جرأة في الدعوة إلى التحديث، تحديث الدولة، وتحديث المجتمع»[42]. وهي دعوة صريحة إلى الاستفادة من الحضارة الغربية، واقتباس عوامل تقدمها، خاصة وأن الدين الإسلامي لا يتعارض مع ذلك، «فلا يتوهن أحد أن الدين الإسلامي يزهدنا في كل ما عند غيرنا فكلا ثم كلا...إن التشبه المنهي عنه...في أمر العبادات. أما ما فيه فائدة وكل ما فيه مصلحة للأمة والمجتمع فلا نهي فيه»[43]، والتي لو اطلع عليها الناس، وأدركوا أهميتها «فسيزيلون عوائق وهمية كانت تعوقهم عن النهوض، وعن السبق في ميدان الرقي العصري المفروض، ويحبط قول من يرمينا بسهم مسموم، وهو أن ديننا الحنيف هو السبب الأقوى في تأخر المسلمين».[44]

التعاضد بين العقل والعلم والدين:

لم تخل مؤلفات الحجوي ومحاضراته من الإشارة إلى مكانة العقل والعلم وعلاقتهما بالدين، والتي قدم فيها رؤيته العلمية والعملية لهذه المكونات الثلاث، باعتبارها أدوات ضابطة ومؤطّرة للفكر الإنساني في سلوكه الفردي والجماعي. ونخص بالذكر في هذا المقام، محاضرته بعنوان" التعاضد المتين بين العقل والعلم والدين"، والتي ألقاها بمدينة مكناس عام 1935، والتي فصل فيها القول في هذه المفاهيم الثلاثة من منظور فقهي وفلسفي، ليكشف عن العلاقة القائمة بينها من جهة، وبين الاجتهاد والنظام من جهة ثانية، مستدلا بنصوص من الشريعة الإسلامية، وبما اكتسبه من تجارب ومعاينات من خلال رحلاته وزياراته إلى أوروبا، ومن معاينته للواقع المغربي الذي يعاني بالدرجة الأولى من الأمية. وبذلك عمل على معالجة المسألة من منظور علمي يوفق فيه بين الأصول الحضارية الإسلامية، وبين ما يوافق هذه الأصول من جديد على العصر، خاصة و "أن العالم الفقيه – في نظر الحجوي-والعالم بأحكام الشرع ومقاصده، يجب أن يكون على صلة دائمة بكل الاكتشافات التي ينتجها التحديث، حتى يستطيع بذلك تطوير اجتهاداته، وتجديد فتاوه، وإعطاءها طابع الاستمرارية"[45]. وهي محاولة منه لإرساء دعامات العقل في العقلية السلفية انطلاقا من المرجعيات التي أطرته، ومن الشرع، وهو ما ينسجم تماما مع المشروع الفكري الذي عمل على تأسيسه في مختلف كتاباته ومحاضراته، وخاصة في «الفكر السامي» و«التعاضد المتين». ومن هذا المنطلق، راح الحجوي يقارب هذه المفاهيم محددا دلالتها والمقصود منها، «فليس المراد بالعقل جوهره اللطيف، الذي به يدرك الإنسان، ويستنتج المجهول من المعلوم، بل المراد القضايا والأحكام التي دلّت البراهين العقلية على إثباتها إثباتا قطعيا لا يحتمل النقيض، إما مستقلا وحده بشعوره الفطري...أو بواسطة استناده إلى حس أو تجربة، أو عادة، استنادا يسلمه العلم أو الاختبار أو المشاهدة، لا يمكن أن يتغير النظر في ذلك، أو يتخلف الدليل مع طول الأزمان، وتغير الأحوال بحيث أن العقلاء امتحنوا أدلته امتحانا علميا قطعيا، فدل الامتحان على أن الدلالة يقينية لا شك يحصل في صحتها أو الغلط فيها، أو تغيرها بتغير الأحوال، هذا المراد بالعقل والعلم»[46]. أما الدين، فليس المراد به كما يقول: «ما أطلق عليه في حديث البخاري: «ذاك جبريل جاء يعلمكم دينكم»، بل المراد أصول الدين من كتاب وسنة وإجماع، يعني مدلولاتها القطعية، فإذا دلّ أحد أصول الدين على مدلول دلالة قطعية ثم عارضها أمر قطعي أو علمي، قام البرهان الحسي والامتحان العلمي على صحته والجزم به»[47]. ليخلص إلى عدم تعارضها، ومنافاة بعضها بعضا، «بل هي إخوة متعاضدة، فالعقل أصل من أصول الدين، والعلم من مكملاته، وكلّ آخذ بيد الآخر يعضده وينصره، ثم إن العقل والعلم لا غنى لهما عن الدين بحال، فالدين مرشد ومبين لما يخفى عن العقل، كما أن الدين هو أصل العلوم ومادتها»[48]. فالإسلام لا يتعارض إطلاقا مع العقل والعلم، فكل واحد يدعم الآخر ويكمله، «فالدين متوافق دائما مع العقل، ولا تكلفنا الشريعة إلا باعتقاد ما سلمه العقل»[49]. وحتى إذا ما تعارض العقل مع النقل، يتم ترجيح الأول وتأويل الثاني، لأن «الإسلام –كما يقول الحجوي-دين معقول تأتلف عقائده بالعقل، وتستند إلى المعقولات، والمستحيل عند العقل مستحيل في

الإسلام، والعلم لا ينافي الدين كما أن العقل لا ينافيه، وحسبك شاهدا لمبلغ الإسلام في احترام العقل تصريح علمائنا بأنه إذا وقع تعارض بين الدليل العقلي، والدليل النقلي، يرجح الأول ويؤول الثاني»[50]. ويبدو هنا أن الحجوي تأثر إلى حد بعيد بفلسفة ابن رشد الذي اعتبر العقل والنقل متممين لبعضهما البعض، «فالنظر البرهاني لا يؤدي إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له...وما من منطوق به في الشرع مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان»[51]. وبذلك يتقاطع ويلتقي فكريا مع رواد الإصلاح في المشرق العربي، وخاصة محمد عبده لما ذهب «إلى أنه إذا تعارض العقل والنقل، أُخذ بما دل عليه العقل وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه، والطريق الثاني: تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل»[52]. فالعقل إذن هو الأساس المعتمد في تعليل الأحكام، واتخاذ المواقف، وهو المقياس، والنص لا يعارضه ولا يخالفه. وبذلك تجاوز الحجوي البنيات المرجعية السلفية التي كان يعتمدها الفقهاء، وتبنى موقفا تحديثيا على مستوى التفكير، «بحيث يصبح المعيار هو العقل، والآلة هي البرهان، فذلك هو سبيل التخلص من التقليد الذي ميز الفكر السلفي لقرون طويلة، وآن الأوان للتخلص منه وفتح المجال أمام المعقول، وطرح كل ما يعد غير معقول»[53]. ولذلك يقول الحجوي: «فالمسلمون لما تمسكوا بالأوهام والأباطيل، وتركوا الحقائق، ونبذوا العلوم والعقل، وغلب عليهم الخيال والأمل بدون عمل، وأخلدوا للراحة، أضاعوا كل شيء، وأصبحت الهوة عميقة سحيقة بينهم وبين الحقائق وكل معقول، فهم تائهون عن الطريق، ويزعمون أنهم متمسكون بالدين، وأن الدين يمنعهم من غير ما هم عليه، وهم مفترون على الدين، بل الدين والحقائق في واد، وهم مع خيالهم في واد»[54].

من هنا راح الحجوي يقارب موضوع العلم ودوره في تقدم الشعوب ورقيها، وخاصة العلوم الحديثة والتي لا تخالف الدين في شيء، «فالعالم لو تمسك كله بالدين وحده دون أن يلتفت إلى العلم، لكان جامدا، ولخالف سنّة الله الملحوظة من حركة الفلك، ولخالف ما أمر به الدين نفسه من العلم، ولا يصل إلى هذا الرقي من العمارة والتعارف والاكتشاف والاختراع المفيد من بعض وجوهه، كالاختراعات الطبية، وتقريب المواصلات، وتقنين قوانين الحياة، والأمن والنظام، وزيادة إتقان ضبط الحقوق، وترقي الفلاحة والصنائع والفنون، والاكتشافات الكهربائية والبخارية، وغير ذلك، فالعقل والعلم كملا ما بدأه الدين»[55]. وهذا من شأنه أن يفتح آفاقا جديدة أمام المجتمع، فكريا، واجتماعيا، واقتصاديا، وسياسيا، لأن «تأثيرات العلم –كما يقول "برتراند راسل " Bertrand Russell "– متعددة ومن أنواع متباينة. فهناك تأثيرات فكرية مباشرة، مثل تحديد العديد من المعتقدات التقليدية، وتبنّي سواها، ثم هناك تأثيرات على التقنيات...وبدورها أحدثت تغييرات بعيدة المدى في النظام الاجتماعي، برزت في المقام الأول نتيجة التقنيات الحديثة، تغييرات تدريجية مماثلة في الحياة السياسية»[56]. ولهذا الغرض شدد على تعلم اللغات الأجنبية، وخاصة اللغات التي أصبح لها رصيد علمي وحضاري. فكلما شارك المرء لغة ما، فهو ينفعل ويتفاعل مع ما تقدمه هذه اللغة من معلومات ومعارف. فاللغة إذا هي المفتاح الرئيسي لتلقي العلوم العصرية، والانفتاح على الثقافات، والاستفادة من الغرب علميا وتكنولوجيا، «فكيف لنا بالتوصل إلى العلوم الرياضية والطبيعية التي صارت قوام حياة الأمم، إلا بواسطة لغة أجنبية لفقد العارفين بهذه العلوم عندنا، وفقد المؤلفات العربية في هذه الفنون، بل لا يتيسر ترقية التجارة والفلاحة والصناعة إلا بمعرفة لغة أجنبية، فلا سبيل إلى هذه العلوم التي هي المقصود بالرقي والتمدّن إلا بمعرفة اللغة الأجنبية»[57]. ولهذا اقترح في مشروعه لإصلاح التعليم تخصيص ثمان ساعات في الأسبوع لتعلم اللغة الفرنسية، وثلاث ساعات لتعلم اللغة الانجليزية، كأساس للتجديد واكتساب المعرفة العلمية، لأن التغيير المنشود لا يستند إلا للتقدم المستمر في العالم الذي يجب مواكبته إذا ما أردنا الخروج من كبوة التخلف، والنهوض بالمجتمع إلى المستوى اللائق بمجده التاريخي ومكانته بين الأمم. ولم يكتف الحجوي في هذا المجال بسرد مزايا الانفتاح اللغوي، ودور العلوم في التنمية، بل تعداه أحيانا إلى توجيه النقد اللاذع للمعارضين المحافظين من علماء عصره الذين « ضيعوا أوقاتا نفيسة في جدالات عقدوا لها مجالس ومؤتمرات لو صرفوها

في تحسين حال المجتمع، لكان أنفع، وذلك بترقية المدارك، والاكتشاف، والاختراع في العلوم الطبية، والكيماوية، والميكانيك، والفلاحة، والصناعة، وكل نافع نفعا حقيقيا، بل وفي العلوم الإدارية لإدارة الممالك الإسلامية الواسعة، والمنتشرة من الشرق إلى الغرب، والتي اختلت باختلال إدارتها، وإضاعة روابطها التي كانت من أمتن رابطة بالعدل والعلم»[58]، مناديا إياهم بقوله: « استيقظوا من نومكم، واعلموا أنكم في زمن أظهرت فيه آثار العلم مخترعات...وأن علماء الطبيعة أتوا بالعجب العجاب...غاصوا في السماء، وحلقوا في الهواء. وداروا حول الأرض في بضعة عشر يوما. وهذا كله إن أردتم أن تدركوه، فما عليكم إلا أن تأتوه من بابه، وهو تحصيل العلوم الرياضية والطبيعية»[59]. وحاثا إياهم بترك «المجادلات الدينية، والاختلافات المذهبية، فذلك شيء فُرغ منه»[60]، ولن يتأتى ذلك كما هو واضح من نصوص الحجوي في مختلف كتاباته، إلا عندما يكون الإنسان قادرا على اكتساب العلوم والمعارف، والأخذ منها بما ينفع نفسه وغيره. لأن «المفاسد — كما يقول-مهما كانت، فمفسدة الجهل أعظم، وهي الداء الذي لا دواء له إلا العلم»[61]. وبما أن العلم هو «رأس مال حياة البشرية» كما قال في كتابه «التعاضد المتين»[62]، و«عنوان ذكائها ورقي أفكارها، وحسن مجتمعها» كما قال في «مختصر العروة الوثقى»[63]، فقد جعله الحجوي إلى جانب فكرتي الاجتهاد والنظام، أحد أسس مشروعه الفكري الإصلاحي في مختلف القضايا التي تناولها، وعلى رأسها إصلاح التعليم، انطلاقا من ضرورة الانفتاح على الآخر المختلف بالقدر الذي يمكننا من اللحاق بالركب دون حاجة إلى الانسلاخ من هويتنا الثقافية أو الانجراف الكلي واجتياف كل ما هو غربي.[64]

التعليم والتجارة دعامتا كل نهضة

حقّت أوروبا مناهج التعليم ومؤسساته ومحافله العلمية بعنايتها، وأفردت اهتماما كبيرا للعلم والعلماء في مختلف المجالات والتخصصات، الأمر الذي جعل الحجوي يؤكد على أن سر نهضة أوروبا وما تَرفل فيه من بذخ حضاري راجع بالأساس إلى ما ذكر، ضاربا المثل بباريس على هذا الصعيد، حيث قال: «إنها لأول المدائن العظمى معارف وفنون جميلة، بل يحق لها أن تعد مدرسة للفنون الجميلة في العالم، وإنها لأعظم المدائن مدارس ومستشفيات ومتاحف ونواد وعلوم ومطابع وقاعات وصناعات وملاهي ومراسح وحانات. فهي بؤرة اللطف والرشاقة ومطمح الذوق السليم العالي والاختراع المثمر للمعالي. ولقد أعانهم على هذا وذاك اقتدار رجالهم العظماء وسعة معرفتهم مع علومهم وكمال النظام في الأعمال والأحكام(...) وإتقان كل عمل يأتونه وعلو الهمة في الترفه وحب الجمال والتظاهر بالكمال والهيام بالعلوم والمعارف وأساس ذلك كله هو العلم، فالتعليم عندهم إجباري على الرجال والنساء(...) بذلك القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم الغير متمدنة التي لا يعرف غالب أفرادها كتابة ولا أدبا ولا حسابا ولا ولا(...) كأهل المغرب الاقصى مثلا(...) فكل مدارس مدينة أو قرية أوروبية ترى فيها المدارس مشيدة ونوادي العلم عامرة (...) لكن أهل باريز أزيد علما وأدبا من غيرهم للطف طباعهم ولما فيهم من القابلية الزائدة عما في غيرهم. ولهذا استبحر العمران في باريز وازداد عدد سكانه وكثرت قصائده من الأفاق البعيدة»[65]، وأعرب عن اندهاشه الشديد بخزانة الأمة الفرنسية بباريس قائلا: «وهي آية في الاتساع والضخامة (...) وكيف لا يدهش الإنسان إذا رأى ما ينيف على ثلاثة ملايين من الكتب المطبعية وما أناف عن مائة ألف كتاب خطية وقالوا إن العدد أكثر من ذلك (...) وقد دخلنا لغرفة فقالوا: هذه فيها الكتب التي ألفها علماء أمريكا وهي تعدل بمكتبة القرويين ومراكش معا إلا أنها مطبعية. فقلت في نفسي: هذه أمة جاءت في الزمن الأخير ألف علماؤها هذا العدد من الكتب وما استقلت إلا منذ نحو مائة وخمسين سنة (...) وإن اللغات الموجودة كتبها في هذه الخزانة تبلغ اثنين وخمسين لغة. وقد دخلنا لغرفة فقيل: هذه لعلم الموسيقى، فتأمل».[66]

شكلت باريس في وعي الحجوي آية في الحسن والكمال فنا وأدبا وعلما ونظاما وعمرانا وسلوكا، وبقدر ما يجد فيها من أسباب القوة والدعة أبهى الصور وأنظر العِبَر، بقدر ما يستحضر الوطن في تأخره وتخلفه، فلا يفتر كلما طفق يزهو بما صوب ناظريه من

البدائع والمنجزات الأوروبية عن مطابقتها بما يمَثّل في بلاده، بنفَس مفعم بتوبيخ الأنا ومدح الآخر بما فيه من قبيل قوله :«وهذه الخزانة هي في الأصل دار للوزير الأكبر للملك لويز الرابع عشر المتقدم، وهي آية في الاتساع والضخامة. ولا يسبق إلى وهمك إذا سمعت لفظ دار الوزير أنها كدار الوزير أحمد بن موسى في فاس أو مكناس أو مراكش، بل لو وجمعت جميع هذه الديار الثلاث في مقابلتها ما وفيتها حقها لأن القباب والصروح هنا لا يوجد لها مثيل في الدور الثلاث، بل المقاعد التي جعلت للمطالعين لا يوجد لها نظير عندنا في المغرب» .ويضيف في السياق ذاته قائلا:« هذه فيها الكتب التي ألفها علماء أمريكا وهي تعدل القرويين ومراكش معا (...) فما أعظم مدارك البشر إذا كان عائشا في جو صاف يستنشق فيه هواء الحرية المطلق ويتغذى بلبان العلم والتهذيب. ليت شعري ماذا ألفه علماء المسلمين في هذه المدة؟» وقوله: «ثم إن رفقائي ملوا كثيرا وضجروا من كثرة ما رأوا وأرادوا الخروج فقلت لهم : ألستم طلبتم رؤية الكتب الخطية فنحن ننتظر وصول المكلف بها؟ عجبا لكم: ما حصل ملل لمن ألف آو كتب أو طبع أو سفر أو ادخر أو بنى أو رصف أو جنس ولا لمن يرينا ويطلعنا فلا أمل في ارتقاء من به داء الملل، فالملل آفتنا العظمى وسبب من أسباب تأخرنا وتقدم غيرنا إنا إذن لمن العاجزين ولو كنتم في ملهى ما مللتم»[67].

ينبه الحجوي إلى أهمية التعليم ووجاهته في القطع مع حالة التقهقر التي عرفها الواقع المغربي، داعيا إلى تأسيس مدارس عصرية تحافظ على الشخصية المغربية وثوابت الأمة، وفي الوقت نفسه تنفتح على علوم الغرب وثقافته[68]، وهو النهج الكفيل في تصوره على تصيير الحال من التخلف إلى التقدم، لذلك يدعو إلى ضرورة تحديث البرامج والمناهج التعليمية، والاحتفاء بالمجالس والمحافل العلمية والحرص على الاعتناء بها، ومما يؤكد ذلك قوله: « بالعلم ارتقت الفلاحة والصناعة والتجارة، وبه وصلت الدول أوج المعالي»،[69] وقوله : «وغير خفي عن أحد أن منتديات أوروبا هي السبب الأكبر في رقي أفكار أهلها وبالمنتديات يبتدئ الرقي الفكري في كل الأمم قبل المدارس بل هي بذور المدارس، وبتلك المسامرات والمحاضرات التي تكون بتلك المنتديات زخرت أوروبا بالعلوم وعمت الحركة العلمية سائر الطبقات».[70]

فضلا عن ذلك، يرى الحجوي أن النهضة رهينة بتطوير أنظمة التجارة وعلومها، رابطا في هذا السياق بين تقدم أوروبا وإجادتها لشؤون التجارة، حتى باتوا مضرب المثل في إتقان فنون التجارة، وقبلة للراغبين في النهل من علومها وتجاربها وخبراتها في هذا المجال، وقد خص بالذكر في هذا المقام تجار الانجليز، ناعتا إياهم: " المشهورون في العالم بمعرفة طرق التجارة وأساليب الإيراد والإصدار، وأعانهم على ذلك ما عليه تربيتهم من صدق المعاملة والقناعة بالربح القليل ليباع العدد الكثير. ويقولون: القليل في الكثير كثير، وهذه قاعدة مطردة ضرورية. فصدقهم في المعاملات الصدق التام الفائق في غيرهم هو الذي مهد لهم الاستيلاء على معظم تجارة العالم، فالإنجليزي إذا سمى لك الثمن فخذ أو ترك ولا تفاتحه في المهاودة. هذا خلق كثير منهم أو الكل فيما سمعنا ممن طال مكثه بين ظهورهم الآماد الطويلة، مع صدق لهجتهم وعدم خداعهم في التجارة لا في السياسة، فحصلت للعالم بهم ثقة تامة أعانتهم على اتساع متاجرهم مع أقطار العالم»[71].

لقد كشف الحجوي بذلك الأسس التي اعتمدها الأوروبيون لتجارة عالية الجودة في الأداء والمصارفة، والمداخل المحكمة التي من شأنها النهوض بالقطب التجاري والقطاع الاقتصادي برمته، وذلك لاعتباره ركنا لابد منه لتشكيل صرح النهضة، ففي محاضرة ألقاها في محفل التجار المغاربة، طرح الحجوي سؤالا استفهاميا: «فلأي شيء تقدموا وتأخرتم؟» مجيبا في الوقت نفسه قائلا: «تقدموا لأنه قدمهم العلم بالتجارة وأخرهم الجهل بها». فالتجارة في تصور الحجوي علم قائم الذات يرتكز على ثلاثة مبادئ رئيسة يتجلى الأوّل في: العلم بقواعد التجارة وقوانينها الحديثة» من محاسبة وإمساك الدفاتر واستعلام عن أحوال السوق في الجرائد والمجلات المتخصصة وتقص الأخبار .بل تجد منزل كل تاجر نابه منتدى من منتديات الأدب والسياسة، فتجد فيه مجلات الشرق والغرب، وكل كتاب

حدث في الاجتماع أو الاقتصاد أو غيرهما» .[72] أما الثاني فيتمثل في: التحلي بحس اللياقة واللباقة في الابتياع والتسويق، وحسن الأناقة والنظافة في هيئة التاجر والمتجر، وترتيب السلع والبضائع وتنسيقها في إشراقة ورونقة، ومتاجر إنجلترا وتجارها في هذا الشأن مثال يحتذى به، إذ «يبهت طرفك في نضارة المحل وزخرفته وجمال منظره، ثم في منظر البضاعة وتنسيق وضعها: كل جنس مع جنسه ونوع من نوعه (...) وإذا نظرت إلى من يبيع وجدته نظيفا ظريفا ذا كسوة جميلة ووجه بشوش وأخلاق كريمة وتربية حسنة وصبر وحذق، فيكون ساحرا لك فتشتري منه رخيصا وغاليا». في حين أن الثالث يكمن في: تحري الوفاء والإخلاص في المتاجرة، والاجتهاد في الرفع من منسوب البيع وكم المردود، ولن يتأتى ذلك إلا عن طريق» صدق المعاملة والقناعة بالربح القليل لبياع العدد الكثير»[73].

كما أكّد الحجوي على الانفتاح على اللغات الأجنبية والعمل على إتقانها، ولاسيما اللغة الفرنسية، وألح من جهة أخرى على ضرورة الاهتمام بالتعليم التقني وربط التكوين النظري بالتطبيق، والأخذ بالعلوم الحديثة الرياضية منها والطبيعية، وإبداع مناهج تساعد على تكوين التاجر المسلم وتأهيله وصقل مواهبه حتى يصبح قادرا على منافسة التاجر الغربي، وذلك بالعمل على إشاعة مدارس متخصصة في التعليم التجاري، يلقن فيها الطالب أدبيات التعامل وأسسها السليمة في المحاسبة وإمساك الدفاتر وملاحظة إيقاع السوق وحركته داخل البلاد وخارجها[74].

اقتنع محمد بن الحسن الحجوي بأن الإصلاح الذي فشل فيه المخزن لأسباب بنيوية بالأساس، كامن في عدم قدرته على القيام بإصلاحات عميقة في بنيات المجتمع[75]، داعيا إلى التعاون مع الآخر: «نجعل يدنا في يدها وأن نصافيها ونتحد معها حتى ننهض بالمغرب من كبوته إلى المستوى اللائق بمجده التاريخي ومكانته بين الأمم، تعاون يفرضه العصر بل يفرضه منطق التقدم والقوة اللذان أصبحا إلى جانب فرنسا الدولة الحامية.»[76]

رغم دعوة محمد الحجوي للتعاون مع الآخر، إلا أنه لم يخف قلقه من بعض المظاهر السلبية عند الغرب كغياب الغيرة وانتفاء سلطان العفة، وظهور المرأة في الأماكن العامة في وضعيات بذيئة مخلة بالحياء والحشمة، «فقد خلعن ربقة الحياء وتبرجن تبرجا لا يتصور فوقه إلا سفاد الحيوانات في الطرق جهرا. فهذا الشيء أفسد الأخلاق ولا تستحسنه ولا يقول به طبع ولا عقل ولا شرع[77]، هذه المشاهد التي تتنافى مع خلفيته الدينية، فباريس في نظره تعد «كعبة الطائفين للتهتك لا التنسك، وركن التفرج والتفسخ لا التبرك، ومرسح التفنن في الأزياء الكثيرة والزخارف الوفيرة والرفه البارع والتهتك بدون وازع وترتيل آيات الملذات بالتجويد والمد والإشباع[78]. فلم يكن الحجوي متناقضا مع نفسه حين قدم مدينة باريس بوجهين متنافرين، في ثنائية تقابل أخلاقها الرفيعة/الوضيعة، وتصف الحاضرة بمدينة العلوم/المجون، وإنما تعمد إثارة هذه المشاهد لصرف اهتمام المتلقي إلى ما ينفع، والتورع عما يخزي لدى الآخر في تصوره.

خلاصة:

يقر الحجوي في خطابه الإصلاحي بالانتكاسة التي تعانيها الذات العربية على جميع المستويات، وعمق الهوة الحضارية التي تفصلها عن الآخر الغربي بمسافات. وقد شكلت كتابات الحجوي الإصلاحية مناسبة للجواب عن سؤال النهضة، وفرصة لبسط أركان مشروعه الإصلاحي الذي يتأسس على العلم والنظام والاقتصاد، مستعينا في هذا المشروع بالنموذج الأوروبي والمقاصد الشرعية، كمرتكزين لتجفيف منابع الفساد والوقوف على أسباب التخلف الحقيقية وتعطيل محركات إنتاجها، التي تمكن من إرساء قواعد دولة المؤسسات، إضافة إلى الفكر العلمي العصري القائم على حقائق وضوابط معرفية صارمة في معالجة القضايا ووضع البرامج والمخططات، فالانفتاح على الحضارة الأوروبية لا يعني في مشروعه الإصلاحي الانغماس في ثقافة الآخر وقيمه ومبادئه، أو الدعوة إلى التغريب والقطع مع التراث وطمس الهوية، وإنما استلهام محفزات الحداثة وأشكال النهل منها بغرض إصلاح حال المجتمع والرفع من قيمة المغرب بين الأمم، دون تجاوز أو إهمال للمقاصد الشرعية الإسلامية.

يتضح من خلال ما سبق المنهج الذي سلكه هذا المفكر في إحداث التغيير والتجديد الديني والفكري على السواء، ومحاربة الجمود والانحطاط ومختلف مظاهر التقليد. وهو منهج يقوم على موقفين متناقضين، موقف المعجب بالإنجازات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية لأوروبا، وموقف المعارض، وخاصة فيما يتعلق ببعض المظاهر السلوكية، والأنماط الاجتماعية التي تعارض الشريعة. وقد حظي الاجتهاد في هذا المنهج بالدور الريادي في التفكير لديه، سواء في الاجتهاد الفقهي أو الفكري، بمراعاة الأرض الفكرية للمجتمع، والتفاعل بشكل إيجابي مع الإنتاج الحضاري الغربي، وإدراك منهجية التفكير والتحضر لديه للتمكن من إيجاد إجابات فكرية، واجتهادات جديدة تواكب وتساير متطلبات العصر، والانتقال بالإنسان من كائن خارج التاريخ، ومتشبع بركام من اللامعقول، إلى كائن يساهم في صنع تاريخه الاجتماعي والحضاري، لأن الرهان كان على الإنسان كمحور للإصلاح، لأقلمته وتكييفه مع العصر وقيمه، والانتقال به من حال إلى حال. ومهما يكن من أمر، فإن قراءة الحجوي تجعلنا أمام صورة عجيبة ومثيرة، بل ونادرة من حيث قوة الوعي بها، تلك هي صورة الفقيه التاجر التي يوجد فيها جنبا إلى جنب، السلفي المتنور، والليبرالي المتمسك بالفكر السلفي.

الهوامش:

[1] أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج9، ص53.

[2] محمد الحجوي، تعليم الفتيات لا سفور المرأة: تحقيق محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2004. ص24.

[3] عباس الجراري: التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين، من 1900 إلى 1972، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1، 1985، ج1: ص 138. وقد صدرت في حق الحجوي، وفي حق كتبه وخاصة الفكر السامي، مجموعة من الأقوال التي دونها في آخر كتابه الفكر السامي: ج4: ص337 وما بعدها.

[4] محمد الحجوي: الرحلة الأوروبية 1919، تحقيق سعيد الفاضلي، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع دار السويدي، الطبعة الأولى 2003، ص 52.

[5] آسية بنعدادة: الفكر الإصلاحي في عهد الحماية (محمد بن الحسن الحجوي نموذجا)، ص88.

[6] هو موقف عبر عنه علال الفاسي بقوله: «وقد انتبه المغاربة منذ الساعة (هزيمة إيسلي) الى أن الأنظمة العتيقة في الجيش وفي الدولة لم تعد مجدية إزاء التقدم الأوربي الحديث، وتكون في نفوس القادة شعورهم بالحاجة الى التجديد وانتحال وسائل النهوض... وصارت في البلاد ثورة الألم من الهزيمة...ودعا عدد من العلماء الى إصلاح الأوضاع السياسية والاقتصادية". وقال صاحب الاستقصا: " وموقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد

المغرب، واستطال النصارى بها، وانكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله، وكثرت الحمايات، ونشأ عن ذلك ضرر كبير" أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج9، ص101.

8 الحجوي محمد، الرحلة الأوروبية 1919، تحقيق سعيد الفاضلي، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع دار السويدي، الطبعة الأولى 2003، ص 13.

9 المرجع نفسه.

10 محمد الحجوي: الرحلة الأوروبية 1919، تحقيق سعيد الفاضلي، دار السويدي العربية للطباعة والنشر، ط1، 2003، ص52.

11 نور الدين أفاية: أسئلة النهضة في المغرب، ص66.

12 حسن أحمد الحجوي، العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي: المركز الثقافي العربي، ط1، 2003، ص190.

13 محمد الحجوي: الفكر السامي: ج1، ص9.

14 المرجع نفسه: ج4، ص31.

15 استهلها بقوله:" ضمني وبعض فضلاء العصر ناد علمي وتجاذبنا أطراف المذاكرة...فقال إن المسلمين لم يعرفوا نظاما منذ ثلاثة عشر قرنا" ، نقلا عن الفكر الإصلاحي في عهد الحماية، ص219.

16 فكلمة نظام، وقد تجمع على أنظمة، وأناظم، ونظم، مصدر معناه جمع الشيء وتأليفه متناسقا متناسبا، ثم تطور هذا المعنى حتى صار في العرف ضبط الأمر وإتقانه، نقلا عن الفكر الإصلاحي في عهد الحماية، ص219.

17 رزوق محمد، محمد بن الحسن الحجوي والمسألة التعليمية، نصوص ودراسات حول الدولة والثقافة والمجتمع في المجال العربي الإسلامي، الجزء الثاني، أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد الجليل التميمي، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 2013، تقديم محمد السعداوي، ص 240.

18 محمد الحجوي: الرحلة الأوروبية 1919، ص 52.

19 المرجع نفسه، ص13.

20 محمد الحجوي: الفكر السامي: ج1، ص105.

21 محمد الحجوي: النظام في الإسلام: مطبوعات معهد المباحث العليا المغربية، الرباط 1928، ص56.

22 محمد الفاضلي، الرحلة الاوروبية، المؤسسة العربية للتوزيع والنشر، سلسلة ارتياد الآفاق، بيروت، 2003، ص 50-52.

23 سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 12، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 167

24 سعيد بنسعيد العلوي، سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 12، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص140.

25 محمد الحجوي، تجديد علوم الدين، مطبعة الثقافة، سلا، 1357، ص 12.

26 محمد الحجوي، كلمة ألقاها بحضور تلاميذ مدرسة أولاد الأعيان بالرباط سنة 1942، نسخة مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط، قسم الأرشيفات، تحت رقم ح118، ص 19.

27 محمد الحجوي، النظام في الإسلام، مطبوعات معهد المباحث العليا المغربية، الرباط، 1928، ص 56.

28 محمد الحجوي، النظام في الإسلام، م.س، ص 56.

29 محمد الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، الجزء الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص 231.

30 محمد الحجوي: الفكر السامي: ج4، ص273-274.

31 المرجع نفسه: ج4: ض315.

32 المرجع نفسه: ج4، ص263.

33 المرجع نفسه: ج4: 272.

34 المرجع نفسه: ج4: ص16.

35 الفكر السامي المرجع نفسه: ج1: ص114.

36 الفكر السامي المرجع نفسه: ج4، ص263. وهو مبدأ أفتى به الحجوي في معرض جوابه عن سؤال وجهه إليه الصدر الأعظم بتونس يستفسر فيه عن استحواذ اليهود والأوروبيين " على تجارة العالم لعدم تعرض شريعتهم لهم في معاملاتهم، فهل من رخصة للمسلمين كي يخرجوا مما هم فيه من الضيق المؤدي للفقر والهلاك؟ فأجبته: إن اليهود نبذوا شريعتهم، وإلا فهي تنهاهم عن الربا، أما نحن، ففتح الباب على مصراعيه نبذ للشريعة، لكن كل مسألة ينظر لها رخصة، فإن وجدت في مذهب، فيترخص للضرورة، وإلا فلا، هذا ملخص جوابي له، فاقتنع به" (الفكر السامي: ج1، ص114)

37 محمد الحجوي: النظام في الإسلام، المطبعة الوطنية، الرباط، 1928، ص56

38 محمد الحجوي، الفكر السامي: ج1، ص114.

39 محمد الحجوي، التعاضد المتين بين العقل والعلم والدين: تحقيق محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار لبيضاء، دار ابن حزم، ط1، 2005، ص 57.

40 عبد الإله بلقزيز، الخطاب الإصلاحي في المغرب، ص24.

41 محمد السويدي: علم الاجتماع الثقافي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1991، ص110.

42 سعيد بن سعيد العلوي: الاجتهاد والتحديث، ص155.

43 محمد الحجوي: التعاضد المتين بين العقل والعلم والدين، ص64.

44 المرجع نفسه: ص 1.

45 حميد الصولبي، مجلة أمل، العدد 7، 1990، ص92، نقلا عن العقل والنقل في الفكر الإصلاحي، ص174.

46 محمد الحجوي: التعاضد المتين، ص33. وقد حدد الحجوي دور العقل في كتابه " الفكر السامي " بقوله: " إن العقل يمكنه أن يدرك حسن الأحكام التي سنّها الشرع، وقبح ما نهى عنه، ثم يعتبر ويقيس الحسن الذي اشتمل على مصلحة الواجب فيوجبه، والقبيح المشتمل على مفسدة الحرام فيحرمه، ولا نقول إنه جامد لا ينظر في شيء" (الفكر السامي: ج 2: ص141)

47 المرجع نفسه، ص29.

48 المرجع نفسه، ص37.

49 المرجع نفسه: ص113.

50 المرجع نفسه: ص9.

51 ابن رشد: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، دراسة وتحقيق، محمد عمارة، دار المعارف، ط2، ص31-33.

52 محمد عمارة: محمد عبده مجدد الإسلام: المؤسسة الوطنية للنشر، بيروت، ط1، 1981، ص122.

53 عبد الجليل بادو: الإصلاح والسلفية، سليكي إخوان، طنجة، ط1، 2007، ص93.

54 محمد الحجوي: التعاضد المتين: ص84-85.

55 المرجع نفسه، ص40.

56 برتراند راسل: أثر العلم في المجتمع، ترجمة صباح صديق الدملوجي، مراجعة حيدر رحاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، نونبر 2008، ص19

57 محمد الحجوي: محاضرة إصلاح التعليم العربي، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ح115. نقلا عن نور الدين أحميان: اللغة والعلوم الحديثة في مشروع الحجوي لإصلاح التعليم، مجلة عصور الجديدة، المجلد 10، عدد3، سبتمبر 2020، ص295

58 محمد الحجوي: التعاضد المتين، ص 100

59 محمد الحجوي: خطب في التربية والتعليم، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ح156. نقلا عن نور الدين أحميان: اللغة والعلوم الحديثة في مشروع الحجوي لإصلاح التعليم، ص298

60 محمد الحجوي: الفكر السامي: ج4: 211

61 محمد الحجوي: تعليم الفتيات لا سفور المرأة: ص12.

62 محمد الحجوي: التعاضد المتين، ص50.

63 محمد الحجوي: مختصر العروة الوثقى في مشيخة أهل العلم والتقى، تحقيق محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ط1، 2003، ص 45

64 لن نخوض في أفكاره الإصلاحية بخصوص الجوانب السياسية والعسكرية، والاقتصادية، في الفلاحة والتجارة والمال، فهو جانب يمكن أن تخصص له أبحاث أخري تعنى بالإصلاحات السياسية والاقتصادية في فكر محمد الحجوي.

65 محمد الفاضلي، الرحلة الاوروبية، المؤسسة العربية للتوزيع والنشر، سلسلة ارتياد الآفاق، بيروت، 2003، ص 52-53.

66 سعيد بنسعيد العلوي، سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 12، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص132-133.

67 سعيد بنسعيد العلوي، سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 12، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص132-133.

68 محمد اليزيدي، محمد بن الحسن الحجوي ومندوبية الصدارة العظمى في العلوم والمعارف على عهد الحماية الفرنسية، دعوة الحق، عدد 380، السنة 45، 2004، ص 108.

69 محمد الحجوي، مستقبل تجارة المغرب، نسخة مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط، تحت رقم ح118، ص 21.

70 محمد الحجوي، مختصر العروة الوثقى، مطبعة الثقافة، سلا، 1938، ص.19.

71 المرجع نفسه، ص.19.

72 محمد الحجوي، مختصر العروة الوثقى، مطبعة الثقافة، سلا، 1938، ص.19.

73 سعيد بنسعيد العلوي، سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 12، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 169.

74 سعيد بنسعيد العلوي، الاجتهاد والتحديث دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء الطبعة الثانية، 2001، ص 85-86.

75 إسماعيل الحسني، سؤال التحديث والاختيار الاستعماري في شخصية –محمد بن الحسن الحجوي نموذجا–، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003، ص. 157.

76 حميد الصولي، "نازلة الحماية في نظر الفقيه المغربي محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش، العددان 16 و17، 2001-2002، ص. 82.

77 سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 12، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص.84.

78 المرجع نفسه، ص. 84.